شهادات من تقرير تنمية المرأة العربية الثاني :

المراهقون: حالمون أم مترددون

استشرافا لمستقبل المرأة العربية وتفاديا لبروز بعض العوائق والعقبات التي تحول دون تطوير دورها وزيادة نسبة مساهمتها ومشاركتها في العملية التنموية، كان التقرير الثاني لتنمية المرأة العربية حول موضوع "الفتاة العربية المراهقة : الواقع والآفاق". ويشمل الإصدار النهائي لهذا التقرير قسمين : قسم أول يتضمن المنهجية والإشكاليات والمؤشرات التي تشمل 22 بلدا عربيا، وقسم ثان يتضمن نتائج الدراسات النوعية المبنية على المقابلات التي أجريت في سبعة بلدان عربية هي البحرين، وتونس، والجزائر، والمغرب، ومصر، ولبنان، واليمن. ونظرا لكثافة المادة المستقاة من المقابلات، ارتأى "كوثر" إفراد شهادات مختارة لمراهقة ومراهق من كل بلد عربي شملته الدراسة النوعية، بإصدار خاص بعنوان "قوس قزح : شهادات لمراهقات ومراهقين".

أراد مركز "كوثر" أن يستكشف عالم المراهقة، فقرر أن يستمع إلى المراهقات والمراهقين ويستطلع طموحاتهم وأحلامهم وتصوّراتهم لذاتهم وللآخرين وللمستقبل... ولما كان "كوثر" قد وجد في ذلك مصدرا لمعرفة لا تنضب وخطابا عميقا ينفذ إلى عمق المستقبل، فقد فضّل تضمين إصدار خاص لشهادات لمراهقات ومراهقين، ونقل كلامهم بأكبر قدر ممكن من الدقة.

واتفق "كوثر" مع الباحثين على اختيار الشهادات باعتماد معيارين أساسين، الأول أن تكون الشخصية المختارة معبّرة عن حالة مألوفة في البلد المعني، والثاني أن تحتوي على عناصر لافتة للاهتمام. وفسح المجال للمراهقات والمراهقين للحديث في كل محاور التحليل التي حددها لهم الدارسون، وهي تصور الذات، والعلاقة بالعائلة والبيئة الأسرية، والمدرسة والعمل والمستقبل المهني، والبلوغ والحب والجنس والزواج، وثقافة المراهقة والسلوكيات الشخصية والصداقة وأوقات الفراغ، والقيم والمفاهيم العامة والنظرة إلى العالم والمجتمع. فلاحت من بينهم نماذج متشابهة أحيانا تتقارب إلى حد التماهي، ومختلفة أحيانا أخرى إلى حد التناقض.

كيف ينظر المراهقون إلى أنفسهم وإلى علاقاتهم بالآخرين ؟

بدت تصورات المراهقات والمراهقين لذواتهم، من خلال الشهادات، مختلفة بين الإناث والذكور، فمثلا "محمود"، وهو مراهق من البحرين، يرى نفسه إنسانا قويا يتحمل كل الصعاب، وأن المشاكل التي تعترضه لا تضعفه بل تقوّيه، وهو يحب أن يثبت وجوده وأن يكون متميزا. بينما تعتقد "وحيدة"، وهي مراهقة من تونس، أنها خجولة، فهي لا تتمالك نفسها عن البكاء لأي سبب كان. وتعكس هذه التصورات طبيعة الأدوار الاجتماعية للإناث والذكور في المنطقة العربية. وقد تكون "مونيا"، وهي مراهقة من الجزائر، من قدمت تفسيرا مقنعا لهذا التباين في تصور الذات، بتأكيدها على أن الذكور يتمتعون بمزايا أكثر من الإناث على جميع الأصعدة مما يجعلهم أقوياء أكثر وذلك بسبب تربية الأولياء أوّلا، والموروث الثقافي والحضاري ثانيا.

وبخصوص علاقة المراهقين بالعائلة وبالمحيط الأسري، تبرز شهادات المراهقين صراعا دائما مع الأبوين أو مع أحدهما. وتعكس علاقة الصراع القائمة بين المراهقين وآبائهم طبيعة علاقة الأجيال فيما بينها عموما، والتي غالبا ما تنبني على اختلاف الأفكار وتباين المواقف بين جيل وآخر. ويضطر المراهقون وتحديدا الفتيات منهم إلى الاستسلام عند حصول مواجهة بينهم وبين أهليهم. فمثلا "مونيا" تحترم أمها ولا تملك الشجاعة لمواجهتها. بينما تشعر "سارة" وهي مراهقة من البحرين، أنه من واجبها أن تمتثل لوالديها فلهما حق عليها. وتتساءل كيف تعصي أمرهما؟ ومن سيكون حينها وصيّا عليها ؟

ويبدو أن البنات يخضعن لرقابة أكثر من الأولاد، من قبل الوالدين غالبا والإخوة الذكور في بعض الأحيان، خاصة فيما يتعلق بالخروج واللباس. وقد أرغمت "خديجة"، مراهقة من المغرب، على ترك المدرسة، لهذا السبب تحديدا. كما أن "نداء"، وهي مراهقة من اليمن، منعها والدها من الذهاب إلى المدرسة لأنها "تفسد المراهقين في نظره".

وتوضّح الشهادات من جهة أخرى ذلك اللاتواصل الطاغي على علاقات المراهقين بآبائهم وهو ما يختزله قول "وحيدة" من تونس : " أنا لا وجود لي في نظر والديّ سوى من حين إلى آخر عندما يريدان الاطلاع على أعدادي المدرسية، وعندما يطلبان مني خدمة ما أو عندما يريدان مني أن أساعدهما في أمر ما". ولعل في هذه الشهادات إشارة إلى غياب الحوار السليم والنقاش المبني على الإقناع بين المراهقين وآبائهم، يؤكده"محمود" من البحرين الذي سلط عليه والداه عقابا قاسيا دون أن يعرفا أسبابه.

ويستمر هذا الجفاء في العلاقة بين المراهقين والمحيطين بهم، ليشمل المعلمين والمشرفين على المدرسة. وقد تصل الأمور أحيانا إلى "تحرش" الأستاذ بالتلميذة، في المدرسة، وهو ما حدث مع "نداء" وهي مراهقة من اليمن وكان له أثر كبير عليها.

وينتقد المراهقون أساليب التدريس ومناهجه لأنها قديمة ولا تستجيب لرغباتهم، لذلك يريد "عمرو"، وهو مراهق من مصر، أن يتخلص من المدرسة. ويعتقد "شكري"، وهو مراهق من اليمن، أن بعض المدرسين لا يبذلون جهدا في التدريس. ويوافقه في رأيه "أشرف"، وهو مراهق من لبنان، ويعتبر طرق التدريس المعمول بها قديمة وتقليدية ويتمنى إعطاء أهمية أكبر لدور التلميذ في العملية التربوية.

أما بخصوص العمل والمستقبل المهني، فيعتبر النجاح في الدراسة من أجل تأمين المستقبل، هو الموقف الأكثر تبلورا، وذلك بالنسبة إلى الفتيات والفتيان على حد السواء، إذ ترى "زينب"، وهي مراهقة من لبنان، أنه على كل بنت تعلمت وأكملت تعليمها أن تتوجه إلى العمل. كما تفضل "سارة"، العمل على البقاء في المنزل، ولكنها تحب في الوقت نفسه أن تكون سيدة بيت تتحمل مسؤولياتها.

المراهقون والحب والجنس والزواج

مع أن أغلب المراهقين يشجعون على الاختلاط بين الجنسين في المدرسة وفي فضاءات أخرى مخصصة للشباب من أجل تحقيق التوازن النفسي والاجتماعي، مع بعض التحفظ عند البعض منهم، مثل "عزيز" وهو مراهق من المغرب، الذي اعتبر الاختلاط بين الجنسين داخل القسم الدراسي سلبيا، نوعا ما، إلا أن مواقفهم من الحب والجنس والزواج جاءت متباينة. فكل المراهقين أكدوا على أهمية الحب، ولكن تبدو الفتيات أكثر حذرا في إقامة علاقات عاطفية مع الفتيان،لأنها ستؤدي برأيهن إلى الهلاك وتكون ضحيتها الفتاة، كما جاء على لسان "نداء". وذكرت "نهلة" وهي مراهقة من مصر، أن ردة فعل أبويها كانت سلبية عندما علما بعلاقة الحب التي تجمعها بأحد الشبان. وعلى خلاف الفتيات، يبدو الفتيان أكثر تحررا في إقامة العلاقات العاطفية. "فأشرف" من لبنان مثلا، يعيش كل سنة تجربة حب جديدة، منذ خمس سنوات، أي منذ بلوغه سن الثالثة عشرة. أما "عزيز" من المغرب، فيعجبه "الاستهزاء" بالفتيات رغم أن دخوله مرحلة المراهقة أنهى ازدهاره العلمي بسبب تزامن ذلك مع ظهور الفتيات في محيطه.

وتوضح الشهادات عموما، أن الحب لدى المراهقين عاطفة غير مستقرة، لم تعرف النضج بعد، ويعد ذلك منطقيا بالنظر إلى أعمارهم. كما يبدو جليا أن الأهل مازالوا يرفضون بشدة العلاقات العاطفية خاصة بالنسبة إلى الفتيات . ولا تزال هذه العلاقة محكومة أيضا بالعادات والتقاليد.

أما فيما يتعلق بالجنس، فإن موقف الفتيات يعتبر متحفظا نسبيا تجاه هذا الموضوع، بينما يبدو موقف الفتيان أكثر تحررا. إذ ترى "وحيدة" أن "الهدف الأسمى" الذي تطلبه من العلاقة الجنسية هو الإنجاب. وليس في نية "مونيا" أن تفقد بكارتها لتحتفظ بها كأجمل هدية تقدمها إلى زوجها. بينما يرى "أشرف" أن الزواج يأسر الشخص، و"المساكنة" في نظره تحل مسائل كثيرة.

وتبين الشهادات أيضا أن البنات غالبا ما يتعرضن إلى المضايقة الجنسية، حدث ذلك مع "زينب"، من لبنان، و"خديجة"، من المغرب، و"نداء"، من اليمن... ولعل أهم ما يمكن ملاحظته من خلال موقف كل من المراهقات والمراهقين من الجنس، أن الفتيات يحرصن أكثر من الأولاد على تأجيل الممارسة الجنسية إلى ما بعد الزواج. غير

من رسوم المراهقين المشاركين في مسابقة "كوثر"

أن "عزيز" يرى عكس ذلك ويؤكد أن البنات أصبحن يمارسن الجنس أكثر من الأولاد. ويعتقد "أشرف" إجمالا، أن الشباب يعانون نوعا من الكبت الجنسي الاجتماعي يجعلهم يمارسون الجنس بدون عاطفة "كالحيوانات".

المراهقــون في قلــب الأحـــداث

تتباين ممارسات المراهقات والمراهقين لهواياتهم ومجالات اهتماماتهم الثقافية، "فنهلة" مثلا تحب السينما كثيرا وخاصة الأفلام الأجنبية كما تحب قراءة الروايات، ويفضل "عمرو" من مصر، مرافقة أصدقائه إلى شاطئ البحر أو في المقهى، وتحب "نداء" الاستماع إلى الموسيقى الحزينة وقراءة الكتب الثقافية، ويهوى "أشرف" الصيد، وتفضل "سارة" من البحرين، الإبحار عبر شبكة الانترنيت، بينما تهوى "زينب" الغسيل وكي الملابس... وهي كلها اهتمامات تعكس بوضوح الوسط الاجتماعي والثقافي والبيئة الأسرية للمراهقين.

ويؤكد المراهقات والمراهقون على اختلاف انتماءاتهم ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية، على أهمية وجود الأصدقاء في حياتهم، رغم اقتناعهم الراسخ بأن الصداقة الحقيقية أصبحت عملة نادرة في زمنهم، ويتضح ذلك من خلال تفضيلهم لعدم البوح بأسرارهم لأصدقائهم. ولا يمانع كل المراهقين تقريبا،، أن تجمعهم صداقات مع الجنس الآخر، إلا أن موقفهم هذا يبدو قليل التجسيد على أرض الواقع. وقد يفسر ذلك برفض الأهل لهذا النوع من الصداقات، وكذلك بحكم الموروث الثقافي والحضاري والعادات والتقاليد.

ويعتبر "الدين" هاما بالنسبة إلى جميع المراهقين، وهو ضروري بالنسبة إليهم لأنهم يتعلمون منه الأخلاق كما يرى "خالد"، مراهق من اليمن، كما أنهم يستمدون منه مبادئهم وسلوكياتهم ويحددون من خلاله أفعالهم، ولكنهم يصرون في الوقت نفسه، على ضرورة التحرر من بعض العادات التي لا علاقة لها بالدين حسب تصورهم.

وتبرز الشهادات أن المراهقين لا يعيشون في عالم خاص بهم خال من هموم الكبار، وهم ليسوا منغلقين على أنفسهم، بل إن مشاغلهم لا تكاد تنفصل عن قضايا الإنسانية عموما، وقضايا منطقتهم العربية على وجه الخصوص، لذلك لاحت مواقفهم من الحرب والإرهاب ومشاكل مجتمعاتهم، أقرب إلى الاتزان والصرامة منها إلى التردد والاضطراب، فأهم مشكلتين في نظر "عمرو"، هما الفقر والأمية. أليستا هما فعلا أهم مشكلتين تعانيهما الإنسانية في بقاع كثيرة من العالم ؟

وأبدى كل المراهقين موقفا سلبيا تجاه حروب السيطرة. وأيد البعض منهم الحرب من أجل استرجاع الأراضي.. "فنداء" تعتبر الحروب الدائرة الآن في العالم شيء فظيع وتتمنى أن يكون العالم في سلام. ويرى "أشرف" أن الحرب لا تحقق الأهداف، وهي تكبد الأطراف المتنازعة خسائر جسيمة ويعتقد أن الحروب المدمرة من صنع أمريكا، وترى "فاطمة" من المغرب أن من يستطيع تقديم المساعدات للشعوب المتضررة هم الحكومات بدرجة أولى... ومواقف كثيرة تتضح من خلالها، أحلام المراهقين الوردية في أن تنتهي الحروب وأن يكون العالم في سلام أكثر، وأن تكون هناك مساواة أكثر، وأمنا أكثر، وحرية أكثر... وأحلاما كبيرة تجعل المستقبل أكثر إشراقا.

ونشير في النهاية إلى أن محتوى شهادات مراهقات ومراهقي المنطقة العربية لا يقتصر على هذه المواقف المدرجة في هذا المقال بالتأكيد، فشهاداتهم ثرية وشاملة ومتنوعة مما يجعل منها مصدر معرفة لا ينضب وخطابا عميقا قابلا لأكثر من قراءة و أكثر من تحليل وهو ما يفسر اختيار "كوثر" لإدراج شهادات المراهقين كما جاءت على ألسنتهم ضمن تقريره الثاني لتنمية المرأة العربية حول موضوع "الفتاة العربية المراهقة : الواقع والأفاق" ليتيح للقراء إمكانية القيام بقراءاتهم الخاصة للموضوع وفك رموز شهادات المراهقين واستخلاص المعرفة منها.

س.غ